

الرحالة الفرنسيون إلى المغرب الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر ظلال الرؤية الاستعمارية وألوان اللوحة الشرقيّة

نزار التجديتي

لا يمكن للمستكشف أن يقنع بأدوار الرحالة
والماسح الطبوغرافي والمصور الفوتوغرافي
والمُجمّع. فالمستكشف يرى في أحلامه
ظلّ رايته يمتدّ حيثما مرّ.

الركيز دو سيكونزاس (1899 - 1901 م)

1. توضيحات منهجية أوليّة :

تعتبر الرّحلات الفرنسيّة إلى بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) في أواخر القرن التاسع عشر مصدرا رئيسيّاً - إن لم نقل وحيدا في كثير من الأحيان - ليس فقط لجمع الأخبار وتصنيفها في التقارير والوثائق والأرشفات الاستعمارية ونشرها وتوزيعها في دوائر المعارف والمعاجم والمجلات الاستشراقية عن حضارة هذه المنطقة، بل هي كذلك مجال ركّزي لصياغة صورة المغاربة في الذّهنيات والمخايل الغربية صياغة ميثولوجيّة متوارثة تفي بمطامع المستعمر.

سنتناول بالدرس، في هذه الأوراق، أعمال بعض الرحالة الفرنسيين إلى المغرب الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر لكن ينبغي، في البداية، توضيح بعض النقاط رفعا لكل لبس في الاصطلاح وفي الجنس الأدبي والعلمي المرصود :

أولا : إن "الرحلة"، في مفهوم الآداب المقارن أو في تصوّر العلوم الإنسانية والاجتماعية على السواء، جنس "أدبي" فضفاض يمتدّ من الرحلة "الحقيقية" في جغرافية المأهول بالحياة إلى التحليق "الوهمي" في خيال الذات الرّحب. وتوجد بين هذين النوعين أشكال هجينة يقتسمها "الواقع" و"الوهم" معا. وإذا كان مصطلح "الرحلة" في اللغة العربية يشمل هذين المعنيين، فإنه ينبغي لنا من الناحية المنهجية البحتة التمييز دائما بجلاء بين الرحلة كسفر في فضاء العالم الطبيعي و"كتابة الرحلة" التي هي "رواية لغوية" تعيد تمثيل هذا السفر على واقع الورق⁽¹⁾.

ثانيا : إنّ الرحلات الفرنسية إلى بلاد المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي أصلا امتداد لتقليد أوروبي عريق تأسس في القرن السادس عشر على إثر الكشوفات الجغرافية التي قام بها الإسبانيون والبرتغاليون في العالم الجديد، وازدهار التجارة في أوروبا، وتقدّم الملاحة في المحيطات⁽²⁾. وقد تطوّر سريعا هذا التقليد الذي سمّي في الاصطلاح الغربي بـ"الرحلات العلمية" (Les voyages scientifiques)، وتحدّد شيئا فشيئا مجموعة من الضوابط الأخلاقية

(1) راجع في الموضوع كتاب دانييل باجو، الادب العام والادب المقارن، باريس، منشورات آغمون كولان، 1994 :

Daniel PAGEAUX, *La littérature générale et comparée*, Paris, Editions A. Colin, 1994.

(2) راجع كتاب دوم كاساس : الرحلات والكشوفات التي قام بها الإسبانيون في الهند الغربية، أمستردام، منشورات لويس دولورم، 1698 :

Relation des voyages et des découvertes que les Espagnols ont fait dans les Occidentales, écrite par Dom CASAS, Amsterdam, Ed. J. L. de Lorme, 1698.

ثالثا : يضمّ جنس "الرحلات العلميّة" عدّة أصناف وأنواع، منها "الرحلة الجغرافيّة"، ومنها "الرحلة الإثنوغرافيّة"، ومنها "الرحلة التجاريّة"، ومنها "رحلة الحج" إلى بيت المقدس، ومنها "الرحلة الصوفيّة" إلى الصحراء، ومنها "الرحلة السياحيّة"، رلخ. وقد عبّر جميع هذه الأصناف الرحليّة - وبدرجات متفاوتة في الوعي الغربيّ - عن رغبة هائلة "لامتلاك العالم" علمياً وروحياً، اقتصادياً وسياسياً. ولذلك، كانت هذه الرحلات الاستكشافيّة استخباريّة، أي رحلات قُصد بها التعرف عن كثب على "البلدان الشّرقية" الغنيّة التي أصبحت لها أهميّة اقتصاديّة وتجاريّة حيويّة بالنسبة للدول الأوروبيّة الحديثة (4).

رابعا : إنّ ظروف الرحلة الصّعبة في الشرق - الشرق بمفهومه الواسع، (5) - وكثرة المخاطر، واستحالة السّفر في العديد من أقاليم المشرق العربيّ، وطبيعة الكتابة الرحليّة نفسها، وشخصيّة الرحّالة وثقافته الخاصّة

(3) في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، حدّد مثلا دو لاكونتي، في كتابه فنّ الرحلة المفيدة، على هذا النحو الدقيق المؤهلات العقلية والفكرية الرئيسية التي ينبغي أن يتحلّى بها كلّ رحالة حسن الاستعداد للإستفادة من رحلته على الوجه الصحيح : "يقتضي فنّ الرحلة المفيدة أربعة شروط ضروريّة : الشرط الأول أن يكون ذهن [الرحالة] سابق التكوين من دون تحديد، والشرط الثّاني أن لا يكون بالغ الاحتياط، والشرط الثّالث أن يتناسب والعلم أو المادّة موضوع الاختصاص والإتقان، والشرط الرّابع أن يعمل [الرحالة] ما في وسعه للاتّصال بالأساتذة الأفاضل ومعرفة آرائهم بدون وسيط [في مسائل العلوم والفنون المنشودة]" (ص. 4) :

D. Boulestys de La CONTIE, *L'Art de voyager utilement*, Amsterdam,, Chez J. Louis de Lorme, 1698, p. 4.

(4) من أشهر هذه الرحلات وصف شبه الجزيرة العربيّة، أمستردام، الناشر بروني، الطّبعة الفرنسيّة الثّانية المصحّحة، 1779 م.

M. NIEBUHR, *Description de l'Arabie*, Amsterdam, Brunet éditeur, 1779, 2 t.

(5) إلى حدود القرن التاسع عشر، كان الشرق بالنسبة للفرنسيّين يبدأ عند جبال البيريني الفاصلة بين جنوب فرنسا وشمال إسبانيا. ولم يكن الفرنسيّون يميزون قبل احتلال الجزائر سنة 1830 ميلاديّة تمييزاً واضحاً بين بلاد الأتراك (مجال الخلافة العثمانية) وبلاد البربر (بلاد المغرب). راجع ملاحظات رولون لوبل في مؤلّفه تاريخ الأدب الإستعماري، باريس، منشورات لاغوز، 1931، ص 24 :

Rpland LEBEL, *Histoire de la littérature coloniale*, Paris, Ed. Larose, 1931, p. 24.

والعامّة، والنّسب الخاصّ للّغات الأوروبيّة المكتوب بها، والفزاع بين الإسلام والأديان الآسيوية من جانب والمسيحيّة الكاثوليكيّة من الجانب الآخر، والصّراع الحضاريّ بين "الشرق" و"الغرب" الذي تبلور تدريجيّاً⁽⁶⁾، كلّها عوامل داخلية وخارجية جعلت من "الرحلة" الغربيّة متنا معقّدا يتراوح بين الواقع والأسطورة، ويتقلّب بين الحقائق المقرّرة والاختلاقات الوهميّة، ويتمزّق بين الملاحظة الموضوعيّة والنّظرة السّطحيّة، وينتقل بين الوصف الدّقيق لعادات "الشرقيّين" والأحكام الجاهزة حول "الكفّار"، الخ. وهو ما فطن له دولاكونيّ في القرن السّابع عشر عندما نبّه الرّحالة الأوروبيّين الشباب إلى جملة من العوائق الثقافيّة والاجتماعيّة التي تحول دون النّظرة الموضوعيّة للغير، وكتب صادقا: "ليس صحيحا ما نجده في الكتب. لأنّه بالإضافة إلى اللياقة التي تسمح بالكتابة إلّا وفق قواعد معيّنة، فإنّ الإطراء وذوق العصر والأمة والمصلحة العامّة يقربّ حتما بين ما يُكتَبُ وبين رأي الذين نعيش بين ظهورهم. ولعمري كلّ هذا يحول دون بروز الحقيقة جليّة"⁽⁷⁾.

خامسا: لا يمكننا اليوم أن ندرس أعمال الرّحالة الفرنسيّين والأوروبيّين كمجرّد "وثائق" تاريخيّة أو علميّة أو إيديولوجيّة، بل لا بدّ أن نعالج فيها كذلك معمار الخطاب الذي تنهض عليه وصياغته الذي تُرى، وهو عمل ما يزال ينتظرنا⁽⁸⁾.

(6) انظر ما يقوله في الموضوع إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، ترجمة كمال أبوديب، 1981، ص 40. (يوسفني الإشارة إلى هذه الترجمة العربيّة لأنّها ركيكة جدّا).

(7) دولاكونيّ، فنّ الرّحلة المفيدة، ص. 2.

(8) راجع نزار التجديتي، صياغة الصّورة، تطوان، ديسبريس، 1999، ص. 51 - 57.

Nizar TAJDITI, *De la mise en image. Le Maroc d'André Chevrillon. Champs de remords et jardins du retour*, Tétouan, Dispress, 1999, pp. 51 - 57.

2. الأدوات التقنية للرحلة الأوروبية :

المؤكد أن الرحلة الأوروبية أفصحت عن إرادة مزدوجة غير واضحة، هي إرادة المعرفة وإرادة امتلاك العالم معا. ذلك أنه بعد فشل الحملات الصليبية الذريع في الشرق الإسلامي، وتعثر نشاط البعثات التبشيرية في أمريكا وآسيا وإفريقيا، نبين للمتفذين الأوروبيين المستيرين السبق التاريخي والحضاري لكثير من الأمم الشرقية "المنحطة العقائد" (9)، والتعقد العرقي واللغوي العميق لأقاليمها الشاسعة. وما دام القصد الأساسي هو امتلاك العالم وتسخير له "الصالح العام" الأوروبي بحساب العقل قبل تعصب الدين، فإنه يتعين أن يسبق مجهر العالم بندقية الجندي حتى يحصي الأول بأدوات تقنية دقيقة جبال الشرق وسهوله وودياته، ويسجل خصى القارات وآبار الأرض، ويعدد لغات المعمور ولهجات الإنس، ويشرح أجناس القبائل وأنواع الحيوان وأصناف النبات، الخ (10).

وهكذا، فمنذ منتصف القرن السابع عشر، كان يتوجب على الرحالة الأوروبيي التسلح بمختلف الآلات لكي يعد المسافات عدا أثناء الرحلة، ويسجل بعناية أحوال الطقس ودرجات الحرارة والبرودة، ويلاحظ جودة الماء والتربة، ويقيس مرتفعات الجبال ومنخفضات السهول والوديان، الخ (11). ومن أجل هذا الغرض، تم تطوير صناعة أدوات

(9) راجع كتاب جوزيف فرانسوا لافيطو في أربعة مجلدات : عادات الهمج الأمريكين مقارنة بعادات العهود الأول، باريز، 1724 :

J. - F. LAFITAU, *Moeurs des sauvages américains comparées aux moeurs des premiers temps*, Paris, 1724, 4 vol.

(10) راجع الكتاب المنشور تحت إشراف ف. ازوفي : مؤسسة العقل، باريز، منشورات فران، 1992 :

F. AZOUVI, *L'institution de la raison*, Paris, Editions E.H.E.S.S. - Vrin, 1992.

(11) راجع كتاب آلان كوربان، أرض الخلاء، الغرب والرغبة في الساحل، 1750 -

1840، باريز، منشورات أوبي، 1988 :

Alain CORBIN, *Le territoire du vide. L'Occident et le désir du rivage, 1750 - 1840*, Paris, Ed. Aubier, 1988.

القياس الكمي المحمولة في أوروبا تطويراً مطرداً (Instruments portables)⁽¹²⁾. وبطبيعة الحال، أدّى استعمال هذه الأدوات من طرف الرحالة العلماء الأوروبيين إلى قدر متزايد من الدقة في قياس الأحجام، وعدّ الكميات، وإحصاء الأصناف النباتية والحيوانية عبر العالم. إلا أنّ هذا الاستعمال وهذه الدقة أصبحا تدريجياً يدلّان على المفهوم الغربي العملي للعلم الذي اختصّ وانحصر في ضبط العالم الخارجي ضبطاً قياسياً : فالمعلوم هنا هو كلّ ما يقبل القياس. وهذا التصرّو الظاهري لصيق بالفرضيات الفلسفية الأوروبية التي قامت على الفصل القاطع بين الإنسان والطبيعة، من جهة وبين الحياة والجماد، من جهة أخرى. إذ بما لا شكّ فيه أنّ هذا العلم الذي كان في البداية شديد الارتباط بالكنيسة وبلطبقة الأرستقراطية، ثمّ تحرّر وصار تدريجياً في يد الفلاسفة المتحرّرين والطبقة البرجوازية الصاعدة، بما لا شكّ فيه أنّ هذا العلم ساهم مساهمة عظيمة في تغيير نظرة الأوروبي للعلاقة بين الإنسان والطبيعة من نظرة دينية يهودية - مسيحية يشغل البشر فيها موضع عباد الله المختارين إلى نظرة فلسفية علمانية ليبرالية يحتلّ الإنسان فيها مرتبة السيد المتاجر في "البضاعة الادمية"⁽¹³⁾.

كلّ هذه التطوّرات تفسّر لنا "الطفرة العلمية" التي حدثت في أوروبا على مستوى جمع المعلومات وكيفية توثيقها واستغلالها انطلاقاً من صناديق الجذاذات داخل المكتبات الكبرى للجامعات والمعاهد والمخابر الأوروبية. فهذه الطفرة قامت على أساس تقدّم تقنيّ مستمر وخلخلة عميقة في العقلّيات والحساسيات والأذواق والأخلاق الفردية والجماعية :

(12) راجع دراسة ماري نويل برورغي، "الرحلات والمقاييس والأدوات : تجربة جديدة للعالم في عصر الأنوار"، باريز، مجلّة الحواريات، العدد 5، ص. 1115 - 1151.

M. - N. BOURGUET, Voyages, mesures et instruments. Une nouvelle expérience du monde au Siècle des Lumières, Annales, n° 5, sep. - oct. 1997, pp. 1115 - 1151.

(13) راجع حول دور مرفأ بورديو الفرنسي في تجارة الرقيق الكتاب التالي :
E. SOUGERA, Bordeaux port négrier : chronologie, économie, idéologie, XVIIIè siècle, Biarritz, Paris, Karkhala, 1995.

فإذا كان التعصّب الدينيّ الأعمى هو الذي دفع في الماضي إلى الرّحلة الصّليبيّة، فإنّ المصلحة التجاريّة المتخفيّة في المصلحة الوطنيّة العليا إبان عصر الأنوار والفلسفات البورجوازيّة خلقت الرّحلة العلميّة مثلما خلقت الدول الأوروبيّة⁽¹⁴⁾، وسمحت باستفراغ العالم وهزيمة الإنسانيّات مثلما برمجت التعصّب العرقيّ في كتابات الرّحالة الأوروبيّين عند نهاية القرن التاسع عشر، ومثلما صيّرت الأدب والثّقافة لخدمة شعارات الاستعمار ومخطّطاته لاستضعاف الشّعوب واستعباد الزّوج⁽¹⁵⁾.

3. الخيال الاستعماريّ المؤسّس للرّحالة الفرنسيّين :

لا يمكن الحديث عن الرّحالة الفرنسيّين إلى المغرب الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر دون أن تتعرّض قبل كلّ شيء للصّور والأساطير والأمثولات والاستيهامات المعقّدة التي التصّقت طويلا بالمغرب الأقصى في الخيالات الفرنسيّة على العموم والخيال الأوروبيّ على الخصوص. ذلك أنّ هذا البلد الإفريقيّ المزدوج الهوية (البربري والعربي) كان، من جهة، يعيش بعد احتلال الجزائر وتونس في شبه عزلة تامّة عن العالم الخارجيّ، كما ظلّ، من جهة أخرى، يحيل في الذاكرة الأوروبيّة إلى تلك "المستعمرة الرّومانيّة القديمة" التي تشهد أنقاضها التّاريخيّة بأمجاد روما العظيمة وحضارتها الكونيّة وإشعاعها الثّقافيّ السّالف بين

(14) راجع مقال لوسيان كولدمان، "فكر الأنوار"، باريز، مجلّة الحواريّات، العدد 4، 1967.

ص. 753 - 757.

L. GOLDMANN, La Pensée des "Lumières", *Annales*, n° 4, juillet - août 1976, pp. 753 - 757.

(15) راجع الكتاب الهامّ لـ لويس صالا مولانس، *بؤس الأنوار : تحت العقل*

المستقيمة، باريز، 1992.

L. SALA MOLINS, *Les misères des Lumières : sous la raison l'outrage*, aris, 1992.

وراجع كذلك نزار التجديتي، "العلم الغربيّ بصفة عامّة والاستشراق بصفة خاصّة"،

مجلّة كلية الآداب بتطوان، عدد 9، 1999 :

N. TAJDITI, De la science occidentale en général et de l'orientalisme en particulier. Réflexions intempestives autour de quelques vérités inoffensives, *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan* n° 9, 1999, pp. 123 - 143.

فهذه الصور الدالة هي التي كانت تدفع بالرحالة الفرنسي إلى الرحلة والمغامرة في أرض مجهولة لا توجد بها طرق معبدة ولا ملاجيء مأمونة للأجانب غير المسلمين، وهذه لأساطير المثيرة هي التي كانت تحت بعض المعامرين والمستعربين على اقتناص الفرص اقتناصا للعبور إلى "ملكة الشرفاء" المنيعة المعروفة بالجهاد و"القرصنة" و"الخشونة" ضد التّصاري الأوروبيين.

3. 1. على خطوات الفاتح العربي عقبة بن نافع :

وهكذا، فعندما عُيّن الدبلوماسي الفرنسي فيرو (M. Éraud) وزيرا مفوضا بمدينة طنجة حيث كانت تقيم السفارات الأجنبية المسيحية، عرض على المستعرب غبريال شارم (G. Charmes) مرافقته في سفارته إلى سلطان المغرب بفاس تبعا لتقليد دبلوماسي فرنسي عتيّد. فأعرب هذا الأخير غت فرحه العظيم بهذه الفرصة التي تتاح له لأول مرة لاكتشاف مثل هذا البلد القريب البعيد، قائلا : "عندما اقترح عليّ [الوزير] مصاحبته إلى طنجة قبلت عرضه بابتهاج، واستيقظت وقتها كلّ غرائزي

(16) راجع مثلاً كتاب هنري لوران، إفريقيا الشمالية (تونس - الجزائر - المغرب)، 1908 م :

Henri LORIN, *L'Afrique du Nord (Tunisie - Algérie - Maroc)*, Paris, 1908, p. 239: ويكفي أن نشير إلى ما وصل المؤرخ اللاتيني سالوست من "أخبار" حول أصل المغاربة، في كتابه الشهير حرب يوغرطة، لتتكشف لنا جلياً هذه الخلفية التاريخية المشتركة في الرحلة الأوروبية : "سأذكر باختصار ما قرئ عليّ مترجماً من الكتب البونيقية المغزوة للكلك هيبسال، وهو رأي يتفق كذلك مع ما يظنّه الأهالي أنفسهم، ثمّ ادع للكتاب مسؤولية أقولهم : كان سكّان إفريقيا الأولون الجيتوليين والليبيين، وهم قوم غلاظ متوحّشون يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحّشة أو بنبات المراعي كما تفعل القطعان، لم تحكمهم عادة ولا قانون ولا رئيس، يهيمنون على وجوههم متشتتين، ولا يقفون إلّا حيث يداهمم الليل" (سالوست، حرب يوغرطة، نقله إلى العربية من الترجمة الفرنسية للأصل اللاتيني محمّد التازي سعود، فاس، مطبعة السلام، د. ت. تاريخ التصدير : 1978، ص. 106 - 107).

الرَّحْلَ بمجرد التفكير في هذه الرحلة نحو المجهول. يا طيف سيدي عقبة ابن نافع! كم من مرة برزت لي في أحلامي عندما كنت اجتاز إسبانيا بأقصى سرعة لكي أصل في أقرب وقت إلى طنجة لأنني كنت أخاف كلّ الخوف أن تغادر السفارة الفرنسية المتعجّلة هذه المدينة دون أن تنتظرني وأن تسلك بدوني طريق فاس التي كنت أتخيلها جميلة تحت الشمس الإفريقية" (17).

على هذا المنوال، يرمز "طيف" القائد العربي الشهير هقبة بن نافع "فاتح" بلاد المغرب إلى الحلم الكبير في اقتحام المجهول والرغبة الجامحة في استكشاف الأصقاع النائية الغامضة. غير أنّ هذا "الطيف" الإسلامي الأسطوري البعيد الذي يستظل به المستغرب الفرنسي للتعبير عن سروره البالغ بهذه الفرصة النادرة له دلالاته السياسية العميقة في سياق الرحلة. إذ يبرّر بسخرية مأكرة مشروع "الاختراق العلمي" : فهقبة دخل المغرب "فاتحاً"، والرحالة الفرنسي يدخله كذلك في إطار الإعداد لـ "الفتح" الفرنسي القريب الذي بدأت تعدّ له جدياً السلطات الفرنسية عند نهاية القرن التاسع عشر.

ولذلك، فليس من المستغرب أن تبدأ السطور الأولى لرحلة غابريال شارم إلى المغرب الأقصى بالإشارة إلى القولة المشهورة التي تلفظ بها الفاتح العربي : "وسار حتّى بلغ البحر المحيط، فدخل فيه، حتّى بلغ الماء بطن فرسه، ثمّ رفع يده إلى السّماء، وقال : يار رب ! لولا أنّ البحر منعني، لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين، مدافعا عن دينك، مقاتلا من كفر بك!" (18). ثمّ يعقب غبريال شارم العلماني على هذا الإيمان الديني الساذج بإيمان علموي لا يقلّ عنه عصبية وغطرسة، قائلاً :

(17) غابريال شارم، سفارة إلى المغرب، باريز، الناشر كالمان ليفي، 1887، ص. 2 - 4 ;
Gabriel CHARMES, *Une Ambassade au Maroc*, Paris, Calmann Lévy éditeur, 1887,
pp. 3 - 4.

(18) نفس المرجع، ص. 1 - 2، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار
الاندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، ج. 1، ص. 27.

"هل ينبغي أن أعترف بأنه بالرغم من بعدي عن تدين عقبة وشراسة طباعه فقد كنت مثله مهوس القلب بطموح يدفعني دفعا إلى مدّ زياراتي في شمال إفريقيا إلى أمواج المحيط الهوجاء لكي أقتحمها بفرسي أو بغلتي - والدابة الأخيرة تناسب صحفيا بسيطا [مثلي] أكثر مما تتناسب مع خديم الفاتحين .. وأصبح بصوت فخيم : "اللهم، إن البحر وحده هو الذي يوقفني، وإلا كنت قد واصلت المسير إلى الأصقاع العجيبة بحثا عن موضوعات الدرس ومواضيع الوصف" (19).

على هذا النحو الرمزي، تكشف المحاكاة التاريخية الساخرة في الصورة الرحلية المذكورة عن البعد الاستعماري المضمر اللصيق بهذا الجنس من الرحلات الاستطلاعية التي أطلق عليها في الأدبيات الفرنسية اسم "الرحلات السفارية" (Récits d'ambassade). إذ من المعلوم أن لغبريال شارم كتابا سياسيا، نشره سنة 1885م تحت عنوان السياسة الخارجية والاستعمارية، حدّد فيه خطط التدخل الفرنسي الواجب اتباعها في كافة البلاد المستهدفة للاستعمار والاحتلال العسكريين (20). وعلى العموم، كانت الرحلة السفارية الأوروبية من ناحية، وسيلة من وسائل سياسة "الاختراق العلمي" للبلد البربري المجهول، كما كانت تعتبر، بحكم طبيعة جنس الرحلة نفسه (21)، من ناحية أخرى، فضاء أدبيا مناسباً جداً لنشر غرائب عادات القوم وتقاليد الشعب ومعتقدات الأمة وجغرافية الأرض. ومن ثم، كان هذا النوع من الرحلات الأدبية مرآة متضخمة لتلك المقارنات الثقافية والدعايات الأيديولوجية الغربية التي كان يحتلّ فيها غالبا القطر العربي، مسلما كان أو مسيحيا، مشرقيا كان أو مغربيا، موقعا أدبي في سلم القيم الروحية والإنسانية والحضارية.

(19) غ. شارم، نفس المرجع، ص 2.

G. CHARMES, Politique extérieure et coloniale, Calmann Lévy éd. 1885. (20)

(21) يعدّ جنس الرحلة جنسا واسعا شموليا يمكن أن يحتضن في نسيجه عدّة أجناس أدبية وفكرية وعلمية : الرواية، السيرة الذاتية، اليوميات، المذكرات الاستطلاعية، التأمّلات الفلسفية، والتقارير الطبيعية والجغرافية، والمدونات الإثنوغرافية، الخ.

3. 2. الرحلة المجهولة إلى شمال المغرب الأقصى :

ومن قبيل هذه الأمنيات الكبيرة، والأحكام الرامزة المتمزجة ببعض الأساطير السياسية المؤسسة للحضارة الغربية الحديثة، ما عبر عنه، عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الرحالة الفرنسي أوغست موليراس من شوق عارم لجمع أسرار المجتمع المغربي عامة والمجتمع الفاسي خاصة وتقديمها في "طبق من ذهب" لمواطنيه الفرنسيين، ورثة الثورة الفرنسية، عندما كتب بفخر شديد في قصة رحلته إلى فاس التي زارها سنة 1900م : "منذ زمان بعيد وأنا متحمس لدراسة المجتمع [المغربي] المحمدي الغريب ومعرفته وكشفه لمواطني، ذلك المجتمع الذي يضغط علينا، ويخنقنا، بل يكاد يكتسحنا [في الجزائر، أي حتى داخل هذه المستعمرة الجميلة بشمال إفريقيا التي سقاها جنودنا بدمائهم عدة مرّات قصد دعوة إخواننا في الإسلام إلى مآدبة الحياة الروحية والمادية الكبرى التي تستدعيهم إليها بكرم أخوي فرنسا الثورة الفرنسية التي لا يمكن أن نسميها دون أن يرتعش قلبنا بمشاعر قوية، والتي تسميها الشعوب المتحررة وطنهم الثاني، والتي نسميها نحن أمنا العظيمة" (22).

وأوغست موليراس هذا مستعرب علماني، عمل رسميا كمترجم للجيش الفرنسي والحكومة الفرنسية بالجزائر ثم اشتغل كأستاذ للغة العربية بجامعة وهران. وفي خضم الظرفية الاستعمارية المثيرة للعقود الأخيرة من القرن التاسع عشر التي فتحت رب الأقصى على مصراعيه أمام المغامرين الأوروبيين، خصوصا بعد هزيمة الجيش المغربي في معركة إيسلي أمام مدافع الفرنسيين الحارقة سنة 1830م ثم في حرب تطوان في مواجهة الجيش النظامي الإسباني عام 1859م، طمح موليراس إلى أن يكلف بإحدى تلك البعثات الاستخبارية التي شرع في إرسالها الحاكم العام للجزائر بالإتفاق مع الحكومة الفرنسية من أجل استطلاع

(22) أوغست موليراس، فاس، باريز، الناشر أوغستان سلامير، 1902، ص. 238.
Auguste MOULIERAS, Fez, Paris, A. Challamel éditeur, 1902, p. 238.

خبايا المغرب وأسرار المغاربة تمهيدا لاحتلال البلد عند المناسبة السانحة.

وإذ لم يتمكن مولييراس من الحصول على تكليف بإحدى هذه المهمات الاستخباريّة في صلب الأرض المغربيّة، حسب قوله، فكّر في طريقة ووسيلة غير مباشرة للحصول على موضوع رغبته ومادّة طموحاته. يقول مولييراس، بهذا الصّد، موضّحا مشروعه "العلمي" في سياق الحماس المتزايد باستكشاف المغرب الأقصى وخدمة أهداف الجمهورية التوسعيّة : "لم يرضخ دمي الغولي القديم (Sang gaulois) لقدركم الكسلاء. حقّا، لم يكن بإمكانني الذهاب إلى المغرب الأقصى، لكن المسلمين ذهبوا وما زالوا يذهبون، بل هم يعودون منه كلّ يوم ! وإذا فالحلّ النهائي لهذا الإشكال الأبدي يتلخّص في الصيغة التالية : إنّ معرفة المغرب والتعريف به بطريقة أفضل ممّا لو ذهبت بنفسني ممكنة بفضل الأخبار التي يدلي بها المغاربة أنفسهم والرحالة المحمديّون. وهكذا، شرعت في العمل توتّاً وحدي بلا معين ولا أيّ دعم، مستعملاً حتّى أوقات فراغي بعد عملي الشاقّ الذي لم أستطع التخلّص منه. ولقد بلغ العمل منتهاه بعد سنوات طويلة مضيّة، وكان ثمرته هذا الكتاب الذي ألفته من أجل بلدي ومن أجل العلم"⁽²³⁾. إنّ ادّعاء الانتماء إلى الدّم الغولي ادّعاء مضحك للغاية في هذا الخطاب الاستعماري المغلف بالغطاء العلمي، لأنّ المتلفّظ به رجل يهودي يتنظّل بالرأية الوطنيّة الفرنسيّة منذ وقت قصير فقط. ومن الدالّ حقّا، أن نعرف أنّ بداية العمل الذي يتحدّث عنه المتلفّظ المعتزّ بنفسه يعود حسب اعترافه إلى سنة 1872م، أي إلى سنتين فقط بعد استصدار الجمعيّة البرلمانيّة الفرنسيّة لقانون كريميوالذي منح بسخاء الكرم الجمهوري الجنسيّة الفرنسيّة إلى يهود الجزائر ومنحها ببخل الغطرسية الاستعماريّة عن الجزائريّين المسلمين (قانون كريميو المذكور مؤرّخ بتاريخ 24 أكتوبر 1870).

(23) مولييراس، المغرب المجهول، ج. 1 : استكشاف جباله، وهران - باريس، 1895، ص. 6.

فما كان من مولييراس إلا أن احتال، واتصل بجزائري من مدينة بجاية، يدعى محمد بن الطيب، من أتباع زاوية هداوة "الصوفية" كان قد جال بصفة "الجواله المعدوم" منطقتي قبائل الرّيف وقبائل جباله بشمال المغرب لمدة اثنين وعشرين سنة. فطلب منه مولييراس أن يروي له أخبار رحلاته في هذه الأصقاع المغربية المستعصية، وكان لهذا الرحالة الغريب ذاكرة قويّة، فرواها له بالتفاصيل الدقيقة. ولترك مولييراس يروي لنا بنفسه جزئيات هذه المغامرة كما سردها في مقدّمة الجزء الأوّل من كتابه المعنونة بـ "لماذا وكيف ألّفت هذا الكتاب"، إذ كتب فيها بضمير الفائز الفخور : "وبدأت [مع محمد بن الطيب] حلقة الاستجابات والأجوبة، وكان بحثا طويلا ودقيقا نتيجة هذا الكتاب. وخلال هذه الحلقات الطويلة التي كانت تستغرق عادة ثماني ساعات ونصف يوميا، تعرّفت أكثر على هذا المسلم الذي كان عظيم الولع بالرحلات. ففي العاشرة من عمره، زار صحبة طلبة آخرين عدّة زوايا بتونس وإقليم قسطنطينية مشيا على الأقدام. وبعد عودته إلى مسقط رأسه بجاية، استمرّ في دراساته القرآنية، دون أن يصرّح لأحد بمشاريعه القادمة. إذ كان يفكر منذ تلك الفترة في رحلة كبيرة إلى المغرب الأقصى يحقق من خلالها ثلاث رغبات دفينّة : زيارة البلد، والهروب من لقاء المسيحي المقيت، ومتابعة دروس علماء فاس بتلك المدينة التي لم تتأثر شهرتها العلميّة. وهي شهرة مبالغ فيها. بزوال الهيمنة السياسية والأدبيّة للمغرب" (24). هنا، لا بدّ من القول أنّ الشكوك تخامرنا في همويّة محمد بن الطيب : هل هو شخصيّة تاريخيّة حقيقية أم مجرد شخصيّة وهميّة من إخراج خيال مولييراس الجموح ؟ ذلك أنّ الأوصاف والمشاريع التي يلصقها مولييراس بمحمد بن الطيب أوصاف تكاد تنطبق عليه ومشاريع كان يضطرب به قلبه. فلقد كان بإمكان يهودي جزائري عاش في وسط عربي بربري أن يتعلّم صغيرا اللّغتين العربيّة والبربريّة معا

(24) نفس المرجع، ص. 8 - 9.

بسهولة⁽²⁵⁾، وأن يزور - بإيعاز من المخابرات العسكرية الفرنسية - زوايا تونس حيث لا يعرفه أحد بصفة الدّرويش المسلم. ولا شكّ أيضاً أنّ مدينة وهران الجزائرية التي كانت يشغل بحقولها وقتئذ عدد وافر من "الرّيفيّين" المساكين كانت مكاناً مناسباً لجمع أدقّ الأخبار عن قبائل منطقة الرّيف البربرية العنيدة، لكن، لهذا السبب بالذات، ألم يكن بمستطاع موليراس القيام بنفسه برحلة سرّية إلى "الرّيف" بشمال المغرب الأقصى متخفياً في جلبلب فلاّح ريفي وبحماية شرفاء وزّان الذين كان زعيم زاويتهم المشهور المقيم بطنجة مولاي عبد السّلام يزور الجزائر بانتظام لكثرة أتباعه بها وبحكم المصالح السياسية والتجارية الكبيرة التي كانت تربطه بحكّامها الفرنسيّين (ومثل هذه الرّحلة السّرية إلى الرّيف" قام بها فعلاً بعد موليراس بسنوات قليلة فقط ضابط المخابرات العسكريّة الفرنسيّة دو سيكونزاس) ؟ كلّ هذه الاحتمالات إذن واردة في هذا السّياق الاستكشافي الاستعماري، سياق الاستعداد الفرنسي المنهج لاحتلال المغرب الأقصى.

وعلى كل حال، سجّل موليراس كافّة المعلومات عن قبائل شمال المغرب الأقصى وعاداتها المختلفة، وأضاف إليها أحياناً تعليقه الخاص وتأويله الإيديولوجي المطبوع بالمبالغة والمزايدة، ثمّ أخرجها في كتاب تحت

(25) يقول موليراس في نهاية مقدّمة الجزء الأوّل من المغرب المجهول هذا الكلام الذي لا نحمله بطبيعة الحال محمّل الجدل لما ينطوي عليه من غرور فاضح وغموض شديد : "ولمّا كنت قد دومت معلوماتي بالعربيّة وبعضها بالبربريّة توجّب عليّ التنسيق بينها، وإعادة التحقيق فيها، واختصارها، وحذف التكرار منها، وتصحيح الأخطاء، ثمّ كتابتها بالفرنسيّة أخيراً، أي إعادة كتابة ما أنجزته سابقاً بلغتين غير معروفتين عند غالبية الأوروبيّين بلغتنا مع كامل الأسف ولو سمحت لي إمكانيّاتي المادّية بنشر مخطوطي العربيّ لأدّى الكتاب خدمات جليّة للذين يتهيّأون لاستكشاف البلاد الإسلاميّة، خاصّة المغرب الأصلى، فالعربيّة المتكلّم بها في هذه البقعة كانت دائماً موضع دراستي، وأظنّ أنّي جمعت في هذا القسم غير المنشور العبارات المغربيّة الشائعة التي تلزم معرفتها كلّ من أراد الرّحلة هناك دون أن تعرف هويّته الأجنبيّة، ولم أتخلّى عن أمل نشر بعض أجزاء هذا المخطوط الضّعيف على الأقل وإنقاذه من لهيب النّار حتّى يستفيد منه جنودنا وتجارتنا ورحالتنا" (ص، 13).

عنوان : المغرب المجهول. وجاء هذا المؤلف في حزين كبيرين، نشر مولييراس الجزء الأول منه سنة 1895م في 200 صفحة بعنوان استكشاف [قبائل] الريف (المغرب الشمالي)، أما الجزء الثاني الذي أصدره عام 1899م في 813 صفحة فخصّصه لـ استكشاف [قبائل] جبالية (المغرب الشمالي) (26).

وعلى هذا الشكل الريب، "كتب" مولييراس "رحلة علمية" مستغلاً تطواف الآخرين أو تطوافه، وموظفاً أغرب توظيف ذاكرته أو ذاكرة الرحالة الفعلين. ورغم غموض مصادر الكتاب، يعدّ هذا العمل الإثنوغرافي إلى اليوم "وثيقة" غنية يعتمد عليها الباحثون الغربيون المعاصرون في علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا عند دراسة قبائل شمال المغرب الأقصى وتراثها الشعبي. وبفضل هذا الكتاب، استطاع مولييراس أن يحصل سنة 1900م من الحاكم العام للجزائر على مهمة استخبارية رسمية صريحة "لسبر عقلية" أهل عاصمة الإمبراطورية الشريفة - حسب قوله - مدينة فاس (27).

والمراد أنّ "رحلات" مولييراس الوهمية والحقيقية تقوم، مثل غيرها من الرحلات الفرنسية إلى بلاد المغرب، على صرح إيديولوجي وأسطوري واحد، غير أنّها تحيل عليه عند هذا "الرحالة" بشكل صارخ جداً : أنوار الثورة الفرنسية، ومهمة فرنسا الحضارية في المغرب. ففي آخر صفحة من رحلته إلى فاس، كتب مولييراس بحماسة التبشيري المعهود : "وراء هذه الصخور المحترفة، تعيش شعوب مجهولة ومعزولة بعيداً عن نور الحضارة؛ وهي أم متوحشة، لها تقاليد غريبة ومذاهب

A. MOULIERAS, *Le Maroc Inconnu*, 2 vol. : I, *Exploration du Rif (Maroc septentrional)*, Oran - (26) Paris, Imprimerie Fouque & Cie, en dépôt à Paris à la Librairie Coloniale et Africaine, 1895, 200 pages, 2 cartes en dépl.; II, *Exploration des Djebala (Maroc septentrional)*, Paris, 1899, 813 pages, 1 photo, 1 carte en dépl.

(27) مولييراس، فاس، ص. 110.

محبطة وفظة. إن هذه الأمم المجاورة لجزائرننا، والقاطنة للجنان المغربي الحالم (Eldorado)، هي آخر الحشود العاتية في الأرض البربرية القديمة التي تقع علينا مسؤولية تنويرها، وبث الأمن بها، وتمدينها : وتلك هي المهمة النبيلة العليا لفرنسا" (28).

ومن البديهي أن مثل هذه المهمة التحضيرية المثالية التي عمّرت طويلا الخيال الرحلي الفرنسي، وتباهى بها السياسيون والمعمّرون الأوروبيون طول فترة الحماية، كانت بطبيعة الحال تعني، في القاموس السياسي الاستعماري للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، خدمة مصالح الحزب الاستعماري الفرنسي السياسية والاقتصادية في إفريقيا البيضاء. وهو ما لم يكن ليخيفه على كل حال معظم الرحالة الفرنسيين إلى المنطقة. فعند تدوين رحلته الاستخبارية الاستكشافية الهامة التي قام بها متخفيا إلى المغرب ما بين 1899م و 1901م، أعلن الرحالة المركيز دو سيكونزاس (DE SEGONZAC) بصراحة عن هدفه الأساسي من الرحلة قائلا في خاتمة تقديمه : "لا يمكن للمستكشف أن يقنع بأدوار الرحالة والماسح الطبوغرافي والمصور الفتوغرافي والمجمع. فالمستكشف يطمح قبل كل شيء لخدمة بلده، ولذلك يرى في أحلامه ظلّ رايته يمتدّ حيثما مرّ" (29).

ولعلّ هذه الصورة البليغة دالة بما فيه الكفاية على الإشارة إلى أن الخيال الرحلي كان يؤثّر جيّدا فضاء ذات الرحالة الفرنسي ليبرّر له وللقارئ الفرنسي كلّ الأغراض التوسّعية لوطنه المتمدّن على حساب الشعوب البدائية المتوحّشة، وليقنعه هو وكلّ مغامر أوروبي بالأهداف

(28) نفس المرجع، ص . 500.

(29) المركيز دو سيكونزاس، رحلات إلى المغرب (1899 - 1901)، باريس، مكتبة

أرمون كولان، 1903، ص. 11 (بالحروف الرومانية) :

Mis DE SEGONZAC, Voyages au Maroc (1899 - 1901), Paris, Libr. A. Colin, 1903, p. XI.

التحضيرية للأحزاب الاستعمارية في شمال إفريقيا (30).

بيد أنه ينبغي أن ندرك جيداً أنّ طموحات الرحالة الفرنسي السياسية ومزاعمه الإيديولوجية لم تأت من فراغ، ولم تقف عند مجرد استرجاع الذكرى الرومانسية البعيدة والحنين إلى زمن ولّى وانقضى. بل انبعث من حاجة ماسة إلى "بنك من المعطيات" الاستراتيجية المختلفة يرشد قرارات السياسي، ويساعد خطط العسكري، ويوجه برامج المعمّر القادمة، وتيسّرت بفضل إنجازات تقنية هائلة عرفت أوروبا منذ النهضة، واستقرّت في الخطاب الأكاديمي العام نتيجة تجارب وملاحظات علمية متواصلة أدمجت نتائجها في الرحلات الأوروبية منذ غزو العالم الجديد والالتفاف حول العالم القديم (31).

4. بعض استراتيجيات الاختراق العلمي للمغرب الأقصى :

بعد هزيمة الجيش المغربي العتيق على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن في معركة إسلي أمام القوّات الفرنسية الحديثة بقيادة الجنرال بوجو يوم 14 غشت من سنة 1844م، واحتلال الجيش الإسباني لتطوان ما بين 1859 - 1860م، وتوقيع الهدنة مع الإسبان بمبلغ باهض خرب ميزانية الدولة، بدا واضحاً ضعف المخزن المغربي على المستوى الإداري

(30) قبل الحرب العالمية الثانية، وقع اتفاق "رسمي" بين الأحزاب السياسية الفرنسية (اليمنية والاشتراكية على السواء) والرأي العام الفرنسي (حول المسألة الاستعمارية وضرورة إخضاع العالم غير المتحضر لإرادة فرنسا القوية والنايونية. راجع كتاب ش. ر. أجرون. فرنسا الاستعمارية أم الحزب الاستعماري؟، باريس، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1979، وبحث جاك مرساي، الإمبراطورية الاستعمارية والرأسمالية الفرنسية، تاريخ طلاقهما، باريس، منشورات ألبان ميشل، 1984 : - Charles Robert AGERON *France coloniale ou parti colonial?*, Paris, Editions Puf, 1979. - Jacques Marseille, *Empire colonial et capitalisme français : Histoire d'un divorce*, Paris, Editions A. Michel, 1984.

(31) ذلك ما صرح به بوضوح في منتصف القرن التاسع عشر الرحالة الفرنسي الكبير الكونت آرثور دي غوبينو في كتابه المعروف : ثلاث سنوات في آسيا (من سنة 1855 إلى سنة 1858). باريس، منشورات غراسي، 1923، الطبعة الثالثة، مجلد 1، ص. 172 :

Arthur compte de GOBINEAU, *Trois ans en Asie (de 1855 à 1858)*, Paris, Editions Grasset, 1923, 3ème éd., vol. 1, p. 172.

والعسكري والسياسي. وإثر ذلك، بدأت التمثيليات الدبلوماسية الأوروبية المقيمة بطنجة تتنافس في نهب المغرب، والإعداد لاحتلاله كاملا عن طريق كسب أكبر قدر من الإمتيازات التجارية والمواقع العسكرية والتأثيرات السياسية داخل البلد.

وفي هذا السياق الاستعماري الدولي، تبلورت مشاريع اختراق المغرب الأقصى علميًا لدى الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة. واتخذت التجارة والسياسة وسيلتين ناجعتين لتحقيق هذا المرمى. وانطلقت الرحلات "العلمية" إلى المغرب الأقصى بشكل لافت للنظر بعد الهزيمتين المذكورتين في جوّ الضغوطات الأوروبية التي مورست بأشكال مختلفة على مولاي عبد الرحمن، وعلى خليفته سيدي محمد ومولاي الحسن الأول⁽³²⁾. فمثلا، زار الطبيب الرحالة النمساوي أوسكار لينز (LENZ) ما بين سنتي 1879 - 1880 أهم المدن بالمغرب، غير أنه عندما حاول الدخول متخفيا إلى مدينة تارودانت جنوب المغرب في رحلته إلى تنبكت اكتشف أمره، وكاد الأهالي يحرقونه حيا⁽³³⁾. واستطاع الرحالة الألماني الشهير بارث (BERTH) النزول بطنجة سنة 1845م، ومعاينة آثار وليلي الرومانية. ثم، تزايدت هذه الرحلات بعد ذلك، وسارت في كلّ الاتجاهات. ففي سنة 1867م، قام عالم النبات الفرنسي بلانزا (BALANSA) برحلة من الصويرة إلى مراكش لفائدة الجمعية الجغرافية الفرنسية⁽³⁴⁾. وكذلك استطاع الوزير الفرنسي المفوض بطنجة شارل

(32) راجع سجلّ المراجع التالي لبلايفير لامبيرو روبرير براون. فهو يضمّ نحو 243 عنوانا، ويصل إلى حدود سنة 1891م :

PLAYFAIR Sir R. LAMBERT & Dr. Robert BROWN, *ABibliography of Morocco from the earliest times to the end of 1891*, Royal Geographical Society, vol. III, part 3, 1892.

Oskar Dr. LENZ, *Timbuktu. Reise durch Marokko, die Sahara und den Sudan*, Leipzig, 188, (33) 2 vol.

وترجمت رحلة لينز إلى الفرنسية بنفس العنوان ثلاث سنوات بعد ذلك :

O. LENZ, *Tombouctou. Voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan*, Paris, trad. P. Lehautcourt, I, 1886, 467, p. II, 1887, 438 p.; 27 grav., 1 carte en dépli.

B. BALANZA, *Voyage de Mogador à Maroc*, *Bulletin de la Société Géographique*, Paris, (34) 1868.

تيسو (CH. TISSOT)، بمناسبة بعثته الدبلوماسية إلى فاس، 1871 من القيام بأول البحوث الحفرية بزرهون وليكسوس، ونشر سنة 1876م وصفا لرحلته من طنجة إلى الرباط (35).

وخلال بعثة الوزير المفوض فيرنويي (VERNOUILLET) سنة 1877م، تمكنت الدبلوماسية الفرنسية من إقناع السلطان مولاي الحسن الأول بقبول بعثة عسكرية فرنسية المعلنة الإشراف على تدريب بعض أفراد المدفعية المغربية لتمكين السلطان من فرض سيطرته على القبائل الخارجة عن طاعته، وهدفها الأساسي اختراق النظام العسكري المغربي. وكان رئيس هذه البعثة الملازم إركمان الذي ظل في المغرب من سنة 1878م (ERCKMAN)، حيث تعلم العربية، ولبس اللباس المغربي، واعتاد بالعادات العربية، وكسب ود السلطان بكفاءاته التقنية، ورافقه في العديد من الحملات العسكرية لقمع القبائل. وقد استعادت فرنسا فجأة لخوفها. على ما يظهر. من اعتناقه الإسلام. وقد نشر إركمان بصغة التعجب والاستغراب رحلته عن المغرب سنة 1885 تحت عنوان المغرب الحديث (36)، ولم يكن الرحالة يعني بهذا العنوان غير نظرة الأوروبي الحديث إلى عوالم الشرق الغريب. إذ ضمن إركمان رحلته العديد من المعلومات والأحداث "الغريبة" عن الحياة داخل البلاط المغربي (حيث تتراعى جهود السلطان المدججة مثلاً على المكان الذي ينعقد به اجتماع الوزراء)، وعن أوضاع المغرب القديم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، غير أن مقص وزير الحربية الفرنسي تدخل ليحذف منها أشياء كثيرة لا تخدم سياسة الدعاية الفرنسية. وبعده بسنة واحدة كتب المهندس دو كامبو (DE CAMPOU) رحلة تدرج في إطار نفس التحليل للأحداث المغربية: إمبراطورية تنهد : المغرب الحديث (37).

Ch. TISSOT, Itinéraire de Tanger à R'bat, *Bulletin de la Société de Géographie de Paris*, (35) Sept. 1876.

ERCKMAN, *Le Maroc moderne*, Paris, 1885. (36)

L. DE CAMPOU, *Une empire qui croule, le Maroc contemporain*, Lib. Plon, 1886. (37)

وفي نفس البعثة الدبلوماسية، دسّ الفرنسيون عميلاً لهم، وهو الطبيب ليناريس (Docteur LINARES)، الذي تسلّل بهذه الصّفة إلى بلاط السلطان مولاي الحسن الأول. وفي شخص هذا الطبيب الذي تفانى في خدمة السلطان، وجد وزراء فرنسا بطنجة الوسيط شبه الرسمي الذي طالما كانوا يحلمون به : أي عيون ترى بوضوح، وقلم يبعث التقارير، وكلمة تخدم بحذق التعليمات الموجهة إليها".

وهكذا، فالمشروع السياسي الملفّ بالغطاء العلمي الوضعي الذي كانت قد أرهصت له بعثة دورنانو وبورل في بداية القرن التاسع عشر، تبنّته مختلف الحكومات الفرنسيّة اللاّحقّة، الملكيّة منها والجمهورية، ونفّذته السياسات الاستعماريّة الاشتراكيّة واليمينيّة بسرعة هائلة انطلاقاً من مركزين سياسيين متكاملين في التّصور والتّخطيط : الجزائر العاصمة حيث كان يقيم الحاكم العام الفرنسي، وطنجة مقر التّمثيليّة الفرنسيّة.

وتعتبر الرّحلات الفرنسيّة إلى المغرب في الفترة ما بين 1870 - 1890م ذات أهميّة بالغة جدّاً للتّعريف على "المغرب القديم"، أي على المغرب كما كان يعيش منعزلاً قبل دخول الحضارة الغربيّة إليه. ومن الدالّ حقّاً في سياق هذا الاختراق العلمي المتواصل أنّ البعثات الدبلوماسية الفرنسيّة إلى المغرب دأبت منذ سنة 1832 على أن تضم في أعضائها "زوجين" أساسين :

(أ) مهندس عسكري أو خبير تقني وظيفته القيام بأنواع متعدّدة من البحوث والدراسات الاستراتيجية عن جغرافيّة المغرب الطبيعيّة والبشريّة، الخ؛

(ب) فنان أو كاتب تناط به مهمّة تدوين أحداث الرّحلة الغربيّة (Voyage exotique) إلى مقر السّلطان بمكناس أو فاس أو مراكش، وتكون ارتسامات الرّحالة حول البلد والشّعب بمثابة تخليد أدبي أو فني للبعثة.

فالعسكري أو الجغرافي أو المنقب يعمل على التعرف على المغرب، بمعنى أنه يمسح الأرض مسحاً علمياً شاملاً، ويشرح سكانها على طاولة التشريح الإثنولوجي. أما الفنان أو الماتب، فتقع عليه مسؤولية رسم اللوحة المغربية، أي تجميل الصورة الشرقية الغربية (أو تقبيحها للمقارئ الأوروبيين). ومن هنا، سبب اختلاف المعلومات عن المغرب، وتناقض المعطيات عن المغاربة، وازدواجية صورة آخر شرق يكتشفه الغربيون في المغرب الأقصى، بحسب الظرفية السياسية والرهانات الاقتصادية التي يمثلها هذا الفضاء الجغرافي المرغوب.

لا يوجد تقسيم ثابت لأدوار الفاعلين الفرنسيين في "نزهتهم بالمغرب"، حسب عنوان رحلة السويسري شارل ديديي إلى المغرب سنة 1844م⁽³⁸⁾. فأحياناً يكون رئيس البعثة الوزير المفوض بطنجة عالماً ممتازاً، مثلما كان الحال في بعثة الوزير تيسو صاحب الحفريات المعروفة بالمغرب. وأحياناً أخرى، لا يقوم الخبير العسكري بالدور الاستكشافي أو الاستخباري، بل ينهض به الطبيب كما حدث مع العميل ليناريس في بعثة فيرونويي. والمقصود أن المقررين السياسيين الفرنسيين اعتمدوا على استراتيجيات بارعة لاستكشاف المغرب، واختراقه على جميع الأصعدة، وضمان سبل التأثير على مجاريات الأمور فيه. وهذه الاستراتيجيات تعددت وسائلها، وتنوعت شخصياتها، وتوسعت إطاراتها، وتفرعت وتعددت برامجها.

نودّ التعرّض، في الفقرات المتبقية، إلى رحلة فرنسية إلى المغرب الأقصى ذات صبغة تمثيلية. هذه الرحلة لم تساهم فقط في إنتاج مرجعية ثقافية عن هذا البلد، بل قامت بدور أخطر ألا وهو صياغة صورة المغاربة صياغة أدبية صارت بديهية في تركيب الخطاب الغربي قبيل فرض الحماية على المغرب الأقصى سنة 1912م.

Ch. DIDIER, *Promenade au Maroc*, Paris LIBR. J. Labbité, 1844. (38)

5. رحلات هنري دولامرتينيير وذكرياته في المغرب الأقصى :

استطاع الطبيب ليناريس إقناع مولاي الحسن الأول بالسّماح للباحث الفرنسي هنري دولامرتينيير بالقيام بكشوفات حفرية بالمغرب بغية استكمال مشروع تيسو الذي نفّذه ما بين سنوات 1871 - 1876 م، وشكّل مادّة بحثه المعنون أبحاث عن الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية⁽³⁹⁾. وقد نشر دولامرتينيير المختص الكبير في الشؤون المحليّة الجزائرية والمغربية (Affaires indigènes) "رحلته" - أو بالأحرى ملخص رحلاته وانطباعاته بالمغرب - تحت عنوان ذكريات عن المغرب. رحلات وبعثات 1882 - 1918⁽⁴⁰⁾، لكن هذا النّشر تمّ في وقت متأخّر جدّا سنة 1919م⁽⁴¹⁾، أي بعدما انتهت جميع مهامّه بالمغرب، تلك المهام الاستخبارية والسياسيّة التي توجّت بتنصيبه وزيرا مفوضا بطنجة. وإذا كان موقعه الحساس في مرامز القرار السياسي يفسّر جيّدا هذا التّأخير، فإنّ كتابة هذه الرّحلة المطبوعة بهاجس الحنين المبهم إلى ماض ولى وشعور التّفاخر بمهمّة فرنسا الحضاريّة في المغرب، وقراءتها خارج سياقها الزّمني تجعلان منها معلّمة وطنيّة أكثر منها رحلة معاصرة للأحداث.

(39) نشر ضمن بحوث أكاديمية النقوش والآداب، باريس، الحلقة 1، المجلّد 9، ص. 139 - 322 :

Ch. TISSOT, *Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitané*, Mémoires présentés à l'Académie des inscriptions et belles - lettres, 1^{er} série, t. IX, 1878, pp. 139 - 322.

(40) باريس، مكتبة بلون، 1919، ص. 301 :

Henri DE LA MARTINIÈRE, *Souvenirs du Maroc. Voyages et missions 1882 - 1918*, Avec héliogravure, carte et itinéraire; Lib. Plon, Préf. J. Cambon, 1919, p. 301.

(41) غير أنّه نشر ذكريات سفارته إلى بلاط مولاي الحسن الأول بالإنجليزية عام 1889 :
DE LA MARTINIÈRE, *Marocco : Journey in the kingdom of Fez and court of Molai Hsan with itinéraires*, London, 1889.

5. 1. البحث عن الزمن الضائع : الماضي الاركيولوجي :

أخذا بنصيحة الطبيب ليناريس ينقب دولامرتينيير أول ما ينقب عن الآثار الرومانية بمدينة ويلي الواقعة بين مكناس وفاس، لأنها قليلة الأخطار . على حدّ قوله . نظرا لقربها من مقرّ السلطان. ومّا لا شكّ فيه أنّ لهذا البحث الحفري الذي دشّنه العلماء الفرنسيون بالمغرب أهميته العلمية البالغة في معرفة تاريخ المغرب القديم مادان يفسّر جزءا من الحاضر ويضيء معالم المستقبل. فغزات الرومان في العالم القديم استطاعت أن تجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية. وعندما سيطرت روما على المغرب الأقصى أقامت به مستعمرات تمدّها بالحبوب والمواشي والجنود، وشيّدت به حواضر تروج فيها سلعها. وللحفاظ على أمن هذه المستعمرات الغنيّة وتمتيع مواطنيها الرومانيين بالمزايا الاقتصادية والسياسية، نصيب روما بالمغرب ملوكا أقزما على حدودها، وحرمت الأهالي من حقوق المواطنة، وابتنت قلعات عسكرية لقمع انتفاضات البربر وخنق رغباتهم في التحرّر. وهو ما يذكر به دولامرتينيير همسا عند عرضه . في ثانيا رحلته . لتاريخ الهيمنة الرومانية على المغرب : وفي طنجيس [أي طنجة] كان يقيم القائد العام للجيش [الروماني] بالمغرب الطنجيطاني [أي المغرب الأقصى]، غير أنّ ويلي كانت أكبر حاميّة عسكرية بداخل المغرب، ولقد تأكّدت أهميتها خلال الثورة المحلية التي حرّض عليها العبد المعتوق أوديمون الثائر مستغلاّ مقتل بطليموس ملك موريطانيا الذي أعدم بروما بأمر من الإمبراطور غاليكولا " (ذكريات عن المغرب، ص. 311).

بيد أنّ نتائج الحفريات تحبط إلى حدّ بعيد فرضيات دولامرتينيير حول خويّة حيطان المدينة التي اعتقد من قراءة متعجّلة لها بأنّها بقايا

الأثار البيزنطية وانقراض الحضارة المسيحية بالمغرب : "لم يكن تيسو يعتقد باحتلال ويلي في بداية القرن الخامس [الميلادي] ؛ وبالتسبة للفترة البيزنطية، يعتقد ديل (DIEHL) أن داخل [الأرض] الطنجيانية كان بعيدا عن سيطرة الإغريق : فقد كتب هذا العالم في كتابه الجميل تاريخ الهيمنة البيزنطية ⁽⁴²⁾ أن الحيطان التي أشرت إليها باعتبارها بيزنطية [إنما] تنتمي في أقرب الاحتمالات إلى آخر عهود الاحتلال الروماني" (ص. 316).

تاريخ المغرب الأقصى القديم تاريخ معقد جدا مثل كل تواريخ بلدان البحر الأبيض المتوسط، ولهذا يحتاج أكثر من غيره إلى الدرسات العلمية الهادئة. غير أن عالم الحفريات الفرنسي متحمس لماضي معين، ولذلك لا يريد أن يرى فيه إلا الوجود الروماني والبيزنطي. وإذا كان يتسامح مع بقايا الوجود اليهودي، فلاسباب إيديولوجية واضحة : استقطاب السياسة الاستعمارية للعنصر اليهودي المقيم منذ القدم بشمال إفريقيا، وغزله عزلا كلياً عن مصير البربر والعرب بفضل امتيازات التجنيس والتعليم التي حولها له قانون كريميو المذكور : "لم أجد خلال مقامي الأخير [ابوليلي] أي مؤشر يسمح بالتعرف على المقبرة المسيحية للفترة السحيقة، غير أنني عثرت في مكان المقبرة الوثنية الكبرى نقشا جنائزيا يهوديا باللغة العبرية المربعة درسه فيليب بيرجي، وهو يشير إلى وجود جالية إسرائيلية. إذ من المعلوم أن اليهود كانوا متواجدين بكثرة في الحقبة الرومانية في الإقليم الإسباني المجاور بيتيقييا (La Bétique)" (ص. 315 - 316).

Ch. DIEHL, *L'Afrique byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (533 - (42)* 709), Lib. E. Leroux, 1896.

وحيثما يستحيل إثبات فرضية سيطرة بيزنطيا على ويلي لمخالفتها للوقائع التاريخية المقررة لدى المؤرخين يتعلّق دولامرتينيير بالقاموس، ويبحث عن وجوه التأويل المختلفة للفظ، وهذا الهوى الروماني والبيزنطي الجارف يلفت الانتباه حقاً في خطاب هذا الرحالة العقلاني : "ينبغي في الواقع أن نتفاهم حول مدلول مصطلح الاحتلال (Occupation) : فسواء أكانت ويلي ملحقة أم لا بالسلطة البعيدة لبيزنطيا (Byzance) أو سبتة، فمن المؤكد أنّ المدينة كان يقطنها شعب مسيحي غزير وغني عند مجيء العرب. لكنه كان على المدينة أن تتحمل صدمة الوندال (...) ومن جهة أخرى، من المعروف أنّ هذا الغزو عندما حطّم قوّة روما مكّن السكّان المحليين من وسائل انتزاع استقلالهم. وخلال الانتفاضات التي تلت وفاة "جتريريك" .. ظهر عدّة قوّد محبّين لتنظيم المقاومة بالمدن، وهو ما برز للعيان عندما أراد "بليزير" أن يعيد باسم بيزنطيا الحدود الرومانية القديمة للمناطق المورسطانية، واذ استعاد البربر تدريجياً القسم الأكبر من البلد. وظلّت ويلي مأهولة في العهود القديمة، وكانت من بين المدن التي نهبها عقبة بن نافع، أوّل فاتح عربي. وقد أعيد بناء المستعمرة الرومانية القديمة لمّا أتى إليها إدريس الأوّل لنشر الإسلام" (ص. 317).

وهكذا، يبدو أنّ البحث الحفري في تاريخ مدينة ويلي الرومانية لا يخلو من أغراض دينيّة وإيديولوجيّة وسياسيّة معيّنة : فبقرب أنقاض روما وبيزنطة، يمكن للمنقب الفرنسي أن يحلم بمستعمرة فرنسيّة على غرار المستعمرات الرومانية القديمة. غير أنّ التاريخ يحاصر هذا البحث بلحظات تاريخيّة أخرى كانت فيها ويلي عاصمة أوّل دولة إسلاميّة أسّسها الشريف العربي مولاي إدريس الأوّل عندما بايعته إحدى القبائل البربريّة. ولم يكن دولامرتينيير ليعبأ كثيراً بهذا التاريخ "القريب" للمغرب، بل كان يشعر بالعكس في بداية الحفر والتنقيب بالاختناق والمطاردة في الجوّ العربي والإسلامي المحيط به، لأنّ أشرف زرهون الإدريسيّ كانوا يرفضون التعامل معه ومساعدته في كشفاته الأثرية

قبل أن يستلطفهم بالهدايا⁽⁴³⁾. بينما كان يحسّ بالانعقاد والحرية وهو يعانق الانقراض الرومانية بحثا عن الزمن الضائع⁽⁴⁴⁾.

5. 2. الحاضر الكئيب : مثالب المخزن المغربي :

في انتظار عودة الزمن الضائع على يد الفرنسيين، زمن الحضارة والتمدّن، يقف الرحالة هنري دولامرتينيير عند الحاضر المغربي المضطرب. إذ يشتمل الفصل الثامن من رحلته تخصيصا على عدّة أخبار هامة عن عهد السلطان مولاي الحسن الأول، وعلى معلومات قيّمة عن آليات أشغال النظام المخزني القديم، وطبيعة الحكم، ممة الشريفيّة، وتحركات الجيش السلطاني، وأهميّة هذه الأخبار والمعلومات واضحة بحكم موقع دولامرتينيير من أصحاب القرار السياسي الأوروبي وقتئذ، وأطلاعه على تفاصيل البلاط المغربي من خلال عيون الضابط العسكري إركمان والطبيب ليناريس، وقيامه إضافة إلى ذلك بالرحلات الاستخباريّة في مسالك مغربيّة خطيرة لم تطرق من قبله : ففي شهر يناير من سنة 1891م، استغلّ دولامرتينيير تواجد قواد السلطان على الجنوب بالبلاط ليذهب في رحلة سرّية من مرّاكش إلى منطقة سوس حيث جاب جنوب المغرب طولا وعرضا، واجتاز قمم الأطلس، وزار لأوّل مرّة مدينة تارودانت عاصمة سوس التي لم يغامر حتّى شارل دي فوكو بزيارتها سنة 1883 (راجع الفصل الثاني عشر من الرحلة : ص. 236 - 273)؛ وفي شهر يوليو من نفس السّنة، قام دولامرتينيير

(43) راجع كتاب دولامرتينيير، تاريخ المغرب قبل مجيء العرب، باريس، مكتبة إرنست لوغو، 1912 :

DE LA MARTINIERE, *Histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes*, Lib. E. Leroux, 1912.

(44) نشر دولامرتينيير أبحاثه في عدّة مجلات أكاديميّة، نذكر منها : تقارير حول الكشوفات الأثريّة بالمغرب وخصوصا بوليلبي، النشرة الخفريّة للجنة الأعمال التاريخيّة، 1891، ص. 135 - 166، "وليلبي"، جريدة العلماء، 1912 :

DE LA MARTINIERE, *Rapports sur les découvertes au Maroc et principalement à Volubilis*, *Bulletin archéologique du Comité des travaux historiques*, 1891, pp. 135 - 166; Id., *Volubilis*, *Journal des Savants*, 1912.

أيضا برحلة استطلاعية من فاس إلى تلمسان (راجع الفصل الخامس عشر من الرحلة : ص. 330 - 368).

ويركّز دولا مرتين بصفة خاصة على مظاهر الفساد السياسي في المخزن القديم، فيصف طريقته الظالمة في استخلاص الضرائب من القبائل الجبلية، ويعرض لحيله في الوصول إلى مبتغاه، ومنها - حسب رواية الرحالة - تجنيده لحملات عسكرية همجية تأتي على الأخضر واليابس : "كانت القضية الكبرى [بالنسبة للمخزن] جمع الضرائب أي الإسهامات والغرامات التي ينبغي استخلاصها من القبائل القاطنة بالمناطق الجبلية الوعرة والبعيدة، أما سكان المدن والسهول، فلم يكونوا ليفلتوا منها قيد أنملة" (ص. 164). "وكان يتبع السلطان - بأعلامه الأربعة والعشرين التي لا تفارقه أينما حل - كل المخزن بوزرائه وكتابه راكبين على البغال تحرسهم فرقة عظيمة من الفرسان" (ص. 168).

ويزعم الراوي أن مولاي الحسن الأول كان يمهّد لذلك بسياسة إثارة الأحقاد والضغائن بين القبائل المتخاصمة وخلق النزاعات بين الأفخاذ المتجاورة حتى تسهل مهمته. بحيث يبدو المخزن للقارئ عند نهاية القرن التاسع عشر - من خلال الصورة التي ترسمها له الرحلة - غولا طفيلياً يمتصّ دماء الأهالي العزل : "وفي الجملة، كان السلطان يحمل معه إما مقدار 200.000 فرنكا [فرنسيًا] فقط في أكياس صغيرة مؤلفة من 500 "دورو" لأنّ الحملة كانت تعيش على كاهل أهل البلد، وكان الباعث على الحملة جمع المال لا إنفاقه" (ص. 170). "وفي كثير من الأحيان، أي كلما دعت الضرورة، يقيم السلطان وجيشه في المنطقة المقصودة طويلاً إلى أن يتم اكتشاف المخزونات من الحبوب وقطعان الماشية، ويرغم الأهالي على التنازل؛ وبدون ذلك يقع النهب، وتختطف النساء اللواتي يبعث بهن العسكر، ويختطف الأطفال، ويحلّ أسوأ الدمار [بأهل القبيلة] (...) ثم تقطه الرؤوس التي تحمل إلى المعسكر، وتجمّع أمام خيمة المجلس [المخزني] جمعاً عادياً كما لو كانت ركاباً من الشعير أو الحبوب، وتملّح وتدهن

بالقطران، وترسل إلى المدن الكبيرة حيث تعلّق على الأبواب ضرباً للأمثال ودليلاً على العدالة الشريفة. ويتحايل غالباً الجنود لأخذ المكافآت، فيأتون برؤوس الأبرياء. ولفضح هذا الغش، كان قوّاد المخزن يفضحون هذه الغنائم البشعة، ويتناقلونّها بين أياديهم" (ص. 164 - 165).

ويؤرّخ الرّحالة كذلك في رحلته لعهد الوصاية، عندما توفي مولاي الحسن الأوّل سنة 1894م، وخلفه في الحكم والرئاسة وزيره المعروف باسم "با أحمد"، وهو عبد أسود بن عبد أسود. ويرجّح الرّحالة مسؤولية اضمحلال المغرب القديم، وسقوطه في فخّ الدول الاستعمارية إلى هذا الوزير بسبب جسعه، وتعصّبه لأهله وبطانته (ص. 173)، وإبعاده لأهل التجربة والمشورة (ص. 176)، وقلة حنكته في الشّؤون الخارجية (ص. 173)، وتنصيبه لصبيّ صغير هو مولاي عبد العزيز سلطاناً على عرش المغرب (ص. 174)، وجمعه لثروة شخصيّة هائلة أنفقها على بناء قصره الباهية بمراكش، ممّا أثار الفتق بالمغرب، وقوّض أسس الشرعيّة السياسيّة المغربيّة (ص. 176). وفي سياق تبيان عاقبة الاستبداد السياسي المغربي، يروي الرّحالة هنري دولامرتينيير كيف بدّد بسرعة الخلف المبدّر (مولاي عبد العزيز) ما جمعه السّلف المدبّر (مولاي الحسن الأوّل) على مدى سنوات من أموال طائلة وبيع هائلة : "غير أنّ [هذا] التراكم من الذهب المحفوظ بحرس شديد أتلّف في عهد عبد العزيز في التّبذير العام الذي تلي وفاة الوصي السي أحمد. وقد أدلى الجميع بدلوه في ذلك التّبذير. فأنا أتذكّر حبور رئيس تمثليّة قنصلية [أجنبيّة] عندما أخبر بأنّ أحد مواطنيه الذي كان ممّون البلاط قد طلب منه اقتناء آلة فوتوغرافيّة من الذهب [للسلطان الجديد] بمبلغ 37000 فرنكا" (ص. 171).

لا ريب أنّ الحقيقة تجانب كثيراً من الأخبار الغربيّة التي جمعها دولامرتينيير جمعاً انتقائياً أثناء رحلاته بالمغرب عن ظلم المخزن وانتشار

القوضى في "بلاد السبية" (45). فالحقوق الفردية والجماعية لم تكن دائما محفوظة في مغرب الأمس. كما أن الوزير الجاهل، والعبد المتغطرس، والقائد الجشع، والجندي سفاك الدماء، وقاطع الطريق، الخ، أنماط بشرية كانت موجودة في المغرب القديم، مغرب القرن التاسع عشر. غير أن الرحالة دولامرتينيير نشر هذه الأخبار والمعلومات عن الاستبداد المغربي بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 م. وبمعنى آخر، فإن صياغة دولامرتينيير لصور الاستبداد المغربي تمت على أساس تبرير الوضع الاستعماري، أي أن هذه الصور جاءت في الواقع لتعكس دور فرنسا الحضاري بالمغرب، ولتلمع صورة فرنسا بالداخل والخارج باعتبارها دولة خلّصت المغرب من الاستبداد الشرقي وأنقذت الشعب المغربي من ظلمات الجهل والطغيان. ولذلك كتب هذا الرحالة باعتزاز الغالب : "عدت إلى المغرب بعد ثلاثين سنة، وفي أثناء زيارتي للحماية الفرنسية زرت مجدداً مرآكش وزاوية سيدي بن العباس (...) وأقمت بتازة.. والمنطقة محمية بحاميات أقامها الجنرال ليوطي، فوجدت السكان يعيشون مطمئنين بدل بلد دمّرتة المنافسات بين القبائل القلقة والمهتاجة التي كان السلاطين عاجزين على السيطرة عليها. وقد أنجز هذا التغيير السعيد بالرغم من التواجد بجوار الزيف الذي بقي مع الأسف، كما في زمن المغرب القديم، ملجأ المحرّضين، والأسوء من ذلك أن هؤلاء اللصوص كان يوجههم الألمان في آخر زيارتي، ويسلّحونهم، ويموّنونهم" (ص. 369).

وهكذا، يتحوّل الرحالة دولامرتينيير في نهاية الرحلة إلى قاض يحاكم الجناة، ويدعو إلى إعدام اللصوص وقطاع الطريق. ولم يكن هؤلاء الجناة واللصوص غير قبائل الرّيف التي رفضت مثل غيرها من قبائل المغرب الاستعمار والاحتلال، وأبت الخضوع والتنازل لمغتصب الحقوق. وإذا كانت قبائل الرّيف قد اقترفت ذنبا كبيرا، فهو أنها خدشت صورة المسلم المستسلم في اللوحة الشرقية التي روجت لها الدعايات الاستعمارية عن

(45) اصطلاح مغربي أطلق على المناطق التي لا يسيطر عليها المخزن.

العالم العربي والإسلامي عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولم يكن بمقدار الوزير دولامرتينيير أن يقبل بهذه الحقيقة العارية، وهو يزهو بالغنيمة الكبرى، ويَنْظُرُ للولاء الإسلامي، ويمجد شجاعة البربر الذين اقتيدوا رغم أنفسهم إلى ساحات الحرب العالمية الأولى للدفاع عن أرض ليست أرضهم، وإزهاق الرّوح على قضايا ليست قضاياهم : "في الوقت المناسب، ستجد الحماية المجال معداً لإقامة الشكل النهائي لإدارتها. لقد تمّ استعادة عمل روما، ولكن بضرب من التنفيذ يشهد بمعرفة دقيقة للرّوح المحليّة (l'âme indigène). وعلى هذا النحو، ستفادي فرنسا مع هؤلاء البربر أحفاد التّوميديين خيبة الرّومانيتين مع يوغرطا. وعلى كلّ حال، يتساءل المرء كيف رضخت [لنا] شعوب المغرب العربي، مع أنّها كانت بالأمس شديدة العداء لنا. وتردّد القول بأنّ المسلمين يستسلمون بسهولة نظرا لقدرتهم الدّينية كـ حين ينضاف إلى ذلك إغراء المنافع يمكن تفسير هذه الفرق المغربيّة في جبهات الحرب الكبرى إذا لم تكن قد ملكنا قلب هؤلاء الناس البواسل" (ص. 373).

5. 3. المغرب الفتي أو الزّمن المستعاد :

مكّنت الأركيولوجيا الرّحالة دولامرتينيير من الغوص في طبقات التاريخ المغربي السّحيقة، ويمحت له بذلك من الانخراط في رهانات حضارية كبرى، ومن ثمّ الابتعاد عن مظالم الحاضر الكثيب، واستحضار أفضل لحظات الحلم الجميل بالمغرب القديم. أمّا كتابة الرّحلة بعد سنوات من فرض الحماية، فقد أتاحت له استعادة الزّمن المفقود بعيدا عن المغرب، أي استذكار رحلاته الأركيولوجيّة بشمال المغرب، واسترجاع أيامه الخوالي بطنجة، مقر السّفارات الأوروبيّة. وبوعي المنقب الوصيّ على أملاك الماضي البعيد، يأخذ دولامرتينيير سلطات الحماية الإسبانيّة على جهلها المطلق بالقيمة التّاريخيّة التّفسيّة للانقراض الفينيقيّة بليكسوس. إذ سمحت هذه السّلطات باستعمال حجر هذه الأنقلض الثّمين في أسس الميناء الجديد

الذي شرعت في تشييده شركة ألمانية بالعرائش (ص. 323 - 324، الهامش رقم 1). وهذا الجهل بأهمية التراث الحضاري للأمم السالفة لا يلمسه دولامرتينيير عند أهل السلطة فقط، بل يراه أيضا متجسدا حتى لدى آباء الكنيسة الإسبانيين : "كانت المدينة [طنجة] ممتدة وغنية في الفترة الإمبراطورية [الرومانية]؛ وقد اكتشفت فسيفساء رائعة عند حفر أسس الكنيسة الجديدة للفرنسيسكانيين الإسبانيين، غير أن هؤلاء الآباء الطيبين غطوا بالجبس هذا الأثر الثمين" (ص. 14).

وينسى الرحالة لحظة فتات الصراع والتنافس المرير بين تمثيلات القوى الأوروبية بطنجة على المكاسب والمفاخر، ويستحلي أوقات المرح والطرب التي كان يستمتع بها الأجانب بهذه المدينة بعيدا عن أجواء الغم واليأس والسرعة في أوروبا الصناعية : "كانت الحياة بسيطة بطنجة الذي ذهب الآن سحرها، كانت حياة هادئة جدا نمضيها في نشاط لطيف ورقيق. لم تكن هناك مجلات محلية، ولا تلغراف، أما الرسائل فكانت تصل ثلاث مرات في الأسبوع حينما تسمح الظروف بذلك. وفي بداية القرن التاسع عشر كانت المراسلة غير ثابتة؛ وفي سنة 1832م استغرقت برقية أرسلت إلى باريز 14 يوما" (ص. 6). ويعدّد الرحالة مباحج الحياة القديمة بجوهرة البوغار من قنص وصيد في البراري، وموائد أكل وشرب ورقص وغرام في المنتجعات الصيفيّة المحيطة بطنجة (ص. 12).

وفي هذا المناخ الناعم، يتذكّر دولامرتينيير الفنانين والرسّامين والكتاب الكبار الذين زاروا طنجة في نهاية القرن التاسع عشر، وتأثروا بسحرها الشرقيّ، واستلهموا من فضاءها العمرانيّ والطبيعيّ أجمل اللوحات وأشهرها. ويأتي بطبيعة الحال على رأس هؤلاء الرّسّام الفرنسيّ الكبير أوجين دولاكروا (1798 - 1869) الابن غير الشرعيّ لوزير خارجية فرنسا طاييليران (TALLEYRAND) في عهد نابليون : "هنا عرف دولاكروا الشرق، ويبدو أنّه لم يعرف غير المغرب الذي أثر على موهبته تأثيرا بالغا؛ فقد حمل من المغرب دراساته [التحضيرية] الرائعة

التي وثق بها عمله [الفني] برمته. [فلوحة] دخول الصليبيين إلى القسطنطينية [1840] رُسِمَت انطلاقاً من [فضاء] طنجة، حيث وضع دولاكروا جوّ المضيق في البوسفور، وتنتجت [الوحة] عرس يهودي الرّائعة عن دراساته بطنجة. وهكذا، فقبل دولاكروا اقتبس الفنانون إلهامهم من شرق مصطنع قائم على المبالغة والهذر السّاحرين (ص. 7). وكان هذا الرّسام قد جاء في سفارة الكونت دو مورناي (Le comte de MORNAY) إلى المغرب سنة 1832، وثبّت صورة السّلطان مولاي عبد الرحمن في لوحته المعروفة (1845)، وحدّد في عدّة لوحات ورسومات لاحقة بهيجة الألوان مثل تحصيل الضّريبة [على الطّريقة] العربيّة (1893). - شرقاً حالماً وغرباً في آن واحد، أي شرقاً جميلاً ودموياً يتخبّط في الاستبداد والعنف والسادية العارمة.

من هذا المنظور الجمالي، يصبح المغرب الطنجي متحفاً إثنولوجياً للأجناس البشريّة، وورشة هائلة من الأنماط الإنسانيّة يستقي منها الرّسام والفنان والكاّتب الأوروبي كلّ ما يشهّي ويريد من النّماذج الفنيّة الفريدة : "وكانت طنجة قديماً مصدراً لا ينضب من النّماذج [الفنيّة] من كلّ الأجناس : كان يوجد بها الزّنوج الصّحراويّون، والكنّاويّون أو أهل غينيا وهم نوع من المهرّجين الجيّدين. ومازلت أتذكّر أحد قادتهم، فقد كان يبهجننا بريشه الذي يغطّيه، وصدفه الأبيض وبهرجه المختلف الألوان، وكان هناك آخرون أبسط منه وأقرب إلى الواقع كلّهم عملوا كنماذج للرّسامين الذين مرّوا من طنجة. وكنا نعثر عليهم بعد ذلك في اللّوحات المعروضة بمعارض أوروبا. ثمّ كان هناك أهل البادية المغربيّة : البربر، وجباله، والرّيفيّون، بعضهم كان يقترب من النّمط [العراقي] لأهلنا بمنطقة البيري (Berry)، وكان بينهم شقر بعينين صافيتين تزيدهم شبيهاً بأهلنا، وكانت بعض النّساء جميلات جدّاً. وبمقدار خفوت التّشدّد المغربي بالسّاحل سنة بعد سنة، لم يكن من الصّعب جدّاً الحصول على النّماذج [الفنيّة]. وفي الحقيقة، اعتبرت طنجة طويلاً مدينة ملعونة من

طرف المغاربة الخُلص الذين كانوا يتركونها تقريبا للنصارى؛ وكان المتعصبون منهم يطلقون عليها "المدينة الكلبة" (ص. 11). وعلى هذا المنوال، تلتقي الأركيولوجيا والفنّ على هدف واحد، ويتوحد الممثل الديبلوماسي والكاتب الفنّان في جسد واحد. ويزوب هذا الجسد في الموضوع الجمالي حينما يتحقّق الرّهان السياسي للجمهورية الثالثة (فرض الحماية)، ويصبح الخصم الإفريقي - المغاربة - ذاتا مشلولة الحوكة، وتتحوّل أعراقه البشريّة إلى موضوع جدير بالتأمّل التجريدي. وبمعنى آخر، تسمح الأركيولوجيا كالفنّ باستعادة الزمن الضائع الذي وجده الرحالة الفرنسي في المغرب قبل الحماية، غير أنّه لم يتعرّف عليه، أو بالأحرى لم يعترف به إلّا بعد الحماية.

